صلاح الدين

للقصصي الإيطالي بوكاتشو

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

حينما تولى الامبراطور فريدريك الأول — إذا صدقنا كثيراً من المؤرخين — استعد المسيحيون لاجتياز البحر لفتح الأرض المقدسة . ولما بلغ الخبر السلطان صلاح الدين ، وكان أميراً مزداناً بأنواع الفضائل وملكا لبابل ، عزم على مشاهدة استعداد الأمراء المسيحيين ليتمكن من حسن الدفاع . فدبر أموره بمصر وتظاهر بالذهاب إلى الحج وسافر متخفياً بملابس التجار ، ولم يصطحب غير صديقين وثلاثة من الخدم . وبعد ما جاب عدة بلاد مسيحية توغل فى لومبارديا ليصل إلى جبال الألب . وعند ذهابه من ميلان إلى پافى صادف شاباً نبيلا يدعى توريل ديسترى قبيل المساء ، وهو من أهالى پافى . وكان وراءه عدد عظيم من الخدم والكلاب والطيور ليقضى بضعة أيام على ضفاف تيزان فى بيت يملكه فى تلك الجهة . فظن هذا الشاب أن هؤلاء ليسوا إلا أمراء أجنبيين يسيحون فى الأرض ، فعزم على مقابلتهم بكل احترام . وحانت لذلك الفرصة إذ انبرى أحد أتباع صلاح الدين ووجه هذا السؤال إلى خادم من خدام الشاب : ماذا بقى من المسافة إلى پافى ؟ وهل فى الامكان الوصول إليها قبل إقفال أبوابها ؟ فرد توريل موجهاً الكلام إلى صلاح الدين :

لا تستطيع ذلك مهما حاولت يا سيدى

— دلنا أين نمضى ليلتنا هذه لأننا غرباء ولا نعرف هذه البلاد

— بكل ارتياح وسرور . ولقد كنت عازماً أن أرسل فى هذه اللحظة أحد أتباعى إلى پافى لقضاء أمر وسيقودكم إلى مكان ترتاحون إلى الاقامة فيه

ثم أسر إلى أذكى خدمه بأن يقودهم إلى منزله عن طريق آخر بينما يسير هو فى أقرب الطرق . وبمجرد وصوله أعد عشاء فاخراً فى حديقته ونسق الموائد ثم وقف بالباب ينتظر ضيوفه . وفى هذه الأثناء كان الخادم يضلل الضيوف من طريق إلى طريق دون أن يشعروا . وفى النهاية دلف بهم إلى البيت . ولما شاهدهم سيده هرع إليهم قائلا : « مرحباً وأهلا وسهلا ! » ولذكاء صلاح الدين وشدة فطنته فهم الحيلة وقال له : « إذا كان فى الامكان أن يُشكر أحد لشرفه وكرمه وجدنا ما نشكوه منك لأنك أطلت طريقنا لتتمكن من حسن الضيافة ولطف المجاملة التى أسرتنا بها ولسنا لها أهلا . فأجاب الفارس الظريف وكان حكيما فصيح اللهجة : « إن ما قابلتك به من الاحترام وحسن الضيافة لقليل بجانب ما تستحقه أيها السيد الجليل إن لم يخدعنى ظاهرك . ولو كنت فى غير پافى لساء نزولك . فلا تأسف إذا طالت طريقك » وفى أثناء الحديث أقبل رجال توريل ليكونوا الاحتفاء بهم جميلا فخما واصطحبوا الأجانب إلى غرفهم التى أعدت لهم ، ثم تناولوا العشاء ودارت عليهم الرطبات وسامرهم

مضيفهم بالد الأسمار وأحبها

وكان صلاح الدين وصاحباه يجيدون اللاتينية فأعجبوا بفصاحة مضيفهم الذى لم يروا مثله فى آدابه وبلاغة قوله ورقة شمائله . وكانت لدى توريل أعظم فكرة عن ضيوفه . وأمسى مهموماً لأنه لم يتمكن من إعداد وليمة فخمة يدعو إليها البلاد ليزيد فى بهجة الضيافة ، ولكنه عزم على إصلاح ذلك فى الغد

ثم اصطحب ضيوفه إلى الحديقة وأرسل رسولا إلى زوجه وكانت نبيهة كريمة . وفى أثناء السمر سأل بكل تأدب ضيوفه عن صفتهم فأجاب صلاح الدين :

« نحن تجار من قبرص ، وسنسافر إلى باريس لقضاء أعمالنا » فأجاب توريل بصوت جهورى : حمداً لله الذى جعل بلادنا تنتج ظرفاء يشبهون تجار قبرص ! »

واستمر الحديث إلى أن جاء وقت العشاء وتركهم يأخذون مجالسهم على المائدة كما يريدون . ولم يكن العشاء فخما ولكنه كان جيداً جداً . وقد ساد عليهم الاخلاص والهناءة ولم يمكثوا طويلا على المائدة ، وفكر توريل فى تعب ضيوفهم من وعثاء السفر فقادهم إلى أيسر منهم وذهب هو إلى سريره

وقد قام الخادم الذى ذهب إلى بافى بما عهد به إليه خير قيام . وبمجرد ما سمعت امرأته الخبر أنبأت أصدقاء زوجها وجهزت وليمة فاخرة ودعت أعيان المدينة ووجهاءها واشترت مختلف الحرائر والوشى الذهبى والسجاجيد والفراء وجهزتها حسب إشارة زوجها

وفى الصباح ركب توريل جواده واصطحب الأجانب إلى مخاضة قريبة وسرهم رؤية طيور صيده حينما تحلق فى الجو . ثم سأله صلاح الدين أن يرسل معهم أحد أتباعه ليدلوهم على طريق بافى فأجابه :

« سأكون دليلكم فى هذه المرة لأنى مضطر لقضاء أعمالى هناك » ثم تابعوا السير فوصلوها فى الساعة التاسعة ، وظن المسافرون أنهم سينزلون فى نزل عظيم ولكنهم دخلوا بيت توريل وشاهدوا نحو خمسين رجلا فى استقبالهم . وسار هذا الجمع أمامهم فقال صلاح الدين : « ما هذا الذى سألناك إياه . ولقد أكرمتنا البارحة أكثر من اللازم فنرجو منك أن تدعنا نتمم طريقنا

— إنى مدين للحظ الذى أرسلك إلىّ البارحة ، وهو الذى أضلك طريقك ؛ ولكنى أرجو منك أن تتكرم بقبول تناول الغداء معنا اليوم ؛ وإن هؤلاء الأصدقاء سيشرفوننا إن سمحت بالجلوس إلى مائدتنا . فاضطر صلاح الدين إلى القبول ؛ فنزلوا ودخلوا دار مضيفهم فوجدوها منسقة بأبهى الأثاث وأفخر الرياش ؛ ثم غسلوا أيديهم وجلسوا إلى المائدة وقد جمعت أطيب الطعام وأفخر الصحاف . ولو كان الضيف نفس الأمبراطور لما استطاعوا أن يهيئوا له أفخر من هذه الألوان ولا أبهج من ذاك التنسيق . ومع أن صلاح الدين وصديقيه قد اعتادوا البذخ ولكنهم دهشوا من هذا الاستعداد لأنهم كانوا يظنون أن مضيفهم ليس إلا من أفراد الأهالى العاديين لا سيداً عظيما . وبعد تناول الغداء وتناول الحديث ذهب النبلاء الايطاليون ليستريحوا من عناء القيظ اللافح ، ولبث توريل وحده مع ضيوفه ؛ ثم دخل معهم إلى غرفة خاصة حتى لا يخفى عنهم أعز وأثمن ماعنده ؛ ونادى زوجه المحبوبة الفاضلة فأقبلت ترفل فى أفخر الأثواب مصحوبة بطفليها الجميلين الرشيقين وسلمت على الأجانب بكل لطف فقاموا وردوا التحية بأحسن منها

وأجلسوها وسطهم وطفقوا يلاطفون الأطفال . وبعد تبادل الحديث سألتهم بكل تأدب عن صفتهم وعن الغرض الذى رحلوا من أجله فأجابوا بنفس الجواب الذى قالوه لزوجها . ثم قالت : « حبذا لو تفضلتم بقبول هذه الهدايا الصغيرة لأن النساء بطبيعتهن ضعيفات الارادة ، فذلك يعطين الأشياء الصغيرة ؛ ولكنى قانعة بأنكم تقدرون حسن نيتى قبل كل شيء دون أن تعيروا الهدايا أقل اهتمام » وقد أحضرت لهم أفخر الثياب مما يلبسه الأمراء وقالت لهم : إن زوجى قد حصل اليوم على ثوب مماثل وأنتم اليوم بعيدون عن نسائكم ورحلتكم بعيدة والتجار يميلون عادة إلى النظافة . ورأي النبلاء أن توريل لم يفته شيء فأجاب أحد الضيوف : « إن هذه الحلل ثمينة جداً ولا يمكن قبولها بسهولة إذا كان فى استطاعتنا أن نرفضها أمام هذه المجاملة الحسنة واللطف الزائد »

وكان توريل قد تركهم منذ هنيهة ، ثم أقبل فودعتهم زوجه وقدمت كثيراً من الهدايا للخدم . ورجا منهم زوجها أن يقضوا بقية اليوم عنده . وبعد أن أخذوا قسطهم من الراحة ركبوا الجياد للتريض فى المدينة وعند عودتهم جهزوا لهم عشاء فخما ثم طفقوا يتسامرون إلى أن حان وقت النوم فذهبوا إلى مضاجعهم

نهضوا فى الصباح إلى جيادهم ليسافروا فوجدوا مكانها خيلا قوية جميلة بعددهم حتى الخدم ، فدهش صلاح الدين وقال حينما عطف على أصحابه : « أقسم بالله إنه لا يوجد رجل كامل الفضائل حسن المجاملة بصير بالأمور مثل هذا الرجل . ولو كان ملوك النصرانية مثل هذا الفارس فى شمائله ومكارم أخلاقه لما استطاع ملك بابل (صلاح الدين) أن يثبت أمام الذين يستعدون لمهاجمته ولا أمام واحد منهم . وقد رأى أن لا فائدة من رفض الهدايا الجديدة فشكروا له حسن صنعه وسافروا

وعزم صلاح الدين إن انتصر فى حروبه أن يرد جميل توريل وكرمه الحاتمى ، وطفق يتحدث طويلا عنه وعن زوجه وسمره الممتع وشريف سجاياه

وبعد أن طاف بجميع جهات أوربا الغربية رجع إلى الاسكندرية مزوداً بكل ما يلزمه من المعلومات وأنشأ يستعد للدفاع

وحينما حان الوقت لسفر المسيحيين وأضحى الاستعداد على قدم وساق في كل مكان صمم توريل على اللحاق بجيوش الصليبيين رغماً عن توسلات زوجه وعبراتها المنهمرة . وبعد ما جهز نفسه واستعد لركوب جواده قال لامرأته : « سأتبع يا عزيزتى الفرسان المسيحيين لسعادتى واطمئنان نفسى وأوصيك برعاية أملاكنا ومصالحنا . إننى معرض لكثير من الأخطار التى تحول دون عودتى ؛ وإنى أطلب منك منة واحدة وهى أن تنتظرينى مهما كان مصيرى عاماً وشهراً ويوماً من ابتداء سفرى »

— كيف أحتمل يا صديقى الآلام التى يسببها لى سفرك ؟ وإن لم توافنى منيتى فأيقن أنى سأحافظ على عهدى وعلى ذكرى توريل فى حياتك ومماتك »

— إننى لا أشك فى إخلاصك ووفائك ؛ ولكنك مازلت فتية جميلة نبيلة متحلية بجميع الفضائل . وقد عرف فيك الناس جميع تلك الشمائل ومن المحتمل أنه بمجرد إشاعة موتى يتقاطر إلى إخوتك وأهلك كثير من النبلاء لخطبتك ولا تستطيعين مقاومة أوامرهم ولهذا السبب طلبت منك الانتظار عاماً وشهراً ويوماً »

— سأعمل كل ما أستطيعه لتنفيذ وصيتك . وإن أرغمت على الزواج فلا يستطيع أحد أن يمنعني من العمل بوصيتك . وإني أسأل الله أن يبقيك لنا ذخراً وسنداً » ثم بكى الزوجان ونزعت امرأته خاتماً من أصبعها وقدمته لزوجها قائلة : « إن مت قبل رؤيتك فليذكرك بي هذا الخاتم » ثم ودعهم توريل وسافر . ولما وصل إلى جنده ركب البحر مع فرقته . ولما بلغ عكا التحق بجيوش المسيحيين . ولقد كان نصيب أغلب هذه الجيوش الموت ونصيب الباقي الأسر وقادوهم إلى عدة مدن . وكان توريل في من لم ينجوا من حسن حظ صلاح الدين أو من مهارته . ولا يعرف السبب الذي يعزى إليه هذا النصر العام والنجاح السريع . ولقد اقتادوا توريل إلى سجن الاسكندرية ، وهناك لم يكن معروفاً لأحد ، وخشي أن يعرف . ولقد فكر في الطيور لأنه يحسن تربيتها وتدريبها

لم يعرف توريل هذا الأمير ولم يفكر إلا في وطنه الذي حن إليه ، وقد هم أن يهرب مراراً ولكنه لم يتمكن من تنفيذ فكرته

وفي هذه الأثناء حضر بعض السفراء الجنويين وافتدوا عدداً من مواطنيهم . وحينما تهيأوا للسفر أعطاهم خطاباً لامرأته يرجوها فيه أن تنتظره ورجا من الذي عهد إليه الخطاب أن يسلمه إلى عمه الأبيه سان بيير ليوصله بنفسه إلى عقيلته

وفي ذات يوم كان صلاح الدين يتحدث مع توريل في شئون طيور صيده فبدرت منه ابتسامة مصحوبة باشارة كان لاحظها صلاح الدين عند مضيفه في يافي ، فحملق فيه فعاودته الذكرى أنه رأى هذا الوجه يوماً ما . فقال له : « من أي البلاد أنت ؟ »

فقال له : « إني ياسيدي من لومبارديا من مدينة تسمى يافي » وقد رجح هذا الجواب ظن صلاح الدين ؛ وقال في نفسه : « لقد أتاح لي الله الفرصة لأعرفه بما تركه لطفه من الأثر في نفسي » وفي الحال أمر بتغيير جميع ملابسه في غرفة كبيرة وصحبه إليها قائلا : « انظر جيداً جميع هذه الملابس علك تعرف منها شيئاً » فسرح الايطالي طرفه في جميع الملابس فلمح الحلل التي منحتها فيما مضى زوجه إلى ضيوفه وقال : « إنني ياسيدي رأيت حلتين تشبهان ما أعطيته لثلاثة من التجار استضافوني » فلم يتمالك صلاح الدين من كبح نفسه وعانقه بحنو قائلا : « أنت مستر توريل ديستري وأنا أحد التجار الذين منحتهم امرأتك هذه الحلل . ولقد حان الوقت لأريك بضائعي كما قلت لك عند سفري »

شعر توريل في اللحظة بالفرح والخجل لمجيء مثل هذا السلطان في ضيافته والخجل لاستقباله استقبالاً عده غير لائق بمركزه

ثم قال له صلاح الدين بحماسة : « أيها الصديق العزيز ، أما وقد أرسلك الله إلينا فتيقن أنك أنت وحدك السيد هنا لا أنا » وبعد ملاطفته ألبسه أفخر الحلل الملوكية واصطحبه أمام كبار رؤساء بلاطه وقدمه إليهم أحسن تقدمة ، ثم أثنى عليه أطيب أنواع الثناء وقال لهم : احترموه كما تحترمونني . فأطاع الكل إشارته ولا سيما الذين اصطحبوه في ضيافة توريل

إن سرعة انتقال توريل من الأسر إلى المجد ألهته عن أمور لومبارديا وظن أن عمه استلم رسائله

وصادف في اليوم الذي أسر فيه صلاح الدين آلافاً من المسيحيين أن مات منهم أحد النبلاء المسمى

« مسير توريل دو دينى وكان غير معروف فى الجيش فظن الناس أنه توريل ديسترى لتشابه الاسم الأول وتأكد ظنهم بأمر توريل فأذاع بعض الايطاليين نعيه فى بلادهم وأكدوا أنهم شيعوا جنازته

وكان لخبر موته الكاذب وقع سيئ عند زوجه وأقاربه وأصدقائه . وظلت زوجه تذرف العبرات الحارة أياماً طوالاً ، وبعد انقضاء عدة أشهر خطبها للزواج كثير من أعيان بلدها وألح عليها أهلها بالقبول فرفضت مدة طويلة وقالت لهم : لابد من احترام المدة التى اشترطها زوجها قبل سفره

وبينما هذه الحوادث تمر فى باڤى كان توريل يفكر فى امرأته وفى قرب انتهاء المدة التى اتفق عليها مع زوجه ففقد صوابه من الغيظ والحنق ، وأضناه الحزن حتى لزم فراشه وتمنى الموت ليتخلص من آلامه

وحينما سمع بمرضه صلاح الدين وكان يحبه حباً جماً أسرع لعيادته وتوسل إليه أن يخبره عن سبب مرضه ، فاعترف له بالحقيقة ، فلامه لتأخره فى الاعتراف وطمأنه قائلاً : « تأكد أنك ستكون فى باڤى فى الميعاد المحدد ، فرجا من الأمير أن يعجل التنفيذ . دعا صلاح الدين ساحراً بارعاً جرب من قبل مهارته وكلفه بنقل توريل وهو نائم على سريره فى سواد ليلة واحدة إلى باڤى . فأجابه الساحر بأنه يلزم أن يعطيه أولاً شيئاً منوماً ثم يباشر عمله . وفى الغد أراد السلطان أن يسفر ضيفه فوضع فى إحدى الغرف سريراً فخماً مزداناً بالمخمل المزركش بأسلاك الذهب واللآلئ الكبيرة والماس الثمين ، وكان هذا السرير آية فى جمال الصنع والفخامة ، وأمر بإلباس توريل حلة فخمة وعمامة من أفخر العمائم . ثم ذهب صلاح الدين مع كثير من الأمراء إلى الجناح الذى أقام فيه ضيفه وقال له والدمع يترقرق من عينيه : « أيها الصديق العزيز ، قد اقتربت ساعة فراقنا ولا أستطيع أن أصحبك أو أرسل فى صحبتك أحداً لطول السفر . ورجائى ألا تنسانى وأن تزورنى مرة ثانية حينما تنتظم أمورك ؛ وأملى أن تستمر المكاتبة بيننا » فخنقت توريل العبرات وقال بعض كلمات متقطعة من تأثره : « إننى لا أنسى معروفك وفضلك وشمائلك النادرة . ثم عانقه صلاح الدين مرات ثم ودعه باقى الأمراء وصحبوه إلى الغرفة المعدة له

ثم استعد الساحر لعمله وأقبل طبيب وبيده شراب قائلاً لتوريل : حبذا لو شربه ليقويه . ثم شربه فنام بعد قليل . ثم حمل إلى السرير المعد له وأضجعوه ووضع صلاح الدين بجانبه تاجاً فخماً لزوجه ووضع بيده خاتماً ثميناً بفص نادر ، وقلده سيفاً مرصعاً بأجمل الأحجار الكريمة وصندوقين صغيرين من الذهب مملوءين بأندر الحلى التى لا يسع المقام وصفها ؛ ثم عانقه مرة ثانية وقال للساحر : هيا إلى العمل . فغاب السرير فى الحال عن عيون الحاضرين ، وبعد لحظة كان توريل فى كنيسة سان بيير فى باڤى

دقت النواقيس مؤذنة بطلوع النهار وكان توريل مافتئ نائماً . ولما دخل الكاهن وبيده مصباحه لمح فجأة هذا السرير الفخم الذى يأخذ الأبصار ، فارتعدت فرائصه وأسرع يعدو هارباً وذهب إلى القسس والرهبان وقص عليهم الخبر فقالوا له : إنها أوهام استحوذت عليك ، ثم ذهبوا جميعاً وأوقدوا كثيراً من الشموع فرأوا السرير وعليه رجل نائم وطفقوا يختبرون هذه الجواهر من بعيد دون الاقتراب منها

ولمسها . ثم استيقظ توريل وتنهد تنهداً طويلاً فذعر القسس والرهبان وركنوا إلى الفرار . ثم فتح توريل عينيه فوجد نفسه في المكان الذي رجا صلاح الدين أن يرسله إليه ، ولمح بجانبه من صنوف الجواهر والحلى والتحف ما أكد له سمو أخلاق صلاح الدين وكرمه الحاتمي . وقد لمح القسس وهم يولون الأدبار ذعراً منه فنادى رئيسهم باسمه قائلاً : أنا توريل ابن أخيك ، فزاد ارتعاد الرئيس لأنه كان يظنه ميتاً ، ثم رسم علامة الصليب واقترب من السرير . فقال له توريل : « م تخاف يا أبتاه ؟ إنني حي وأتيت من وراء البحار » فاطمأن عمه ورآه لابساً حلة عربية فخمة وعرفه جيداً رغماً من لحيته التي أرسلها ثم قال له : « أهلاً وسهلاً يا بني ومرحباً ، لقد ذعرنا في بادئ الأمر لأنه لا يوجد أحد في جميع المدينة لا يعرف خبر موتك . وقد هدد زوجك أقاربها فاضطرت للاذعان بالزواج وستكمل اليوم وقد تم الاستعداد للحفلة والعرس »

فأمر توريل للرئيس وجميع الكهنة ألا يخبروا أحداً بعودته ، ثم وضع جواهره وتحفه في مكان أمين وأخبر عمه بقصته من أولها إلى آخرها ، ثم قال له : إنني أحب أن أذهب إلى العرس لأختبر حالة زوجي وهيأتها . فأرسل إلى الخطيب يستأذنه في الحضور مع أحد أصدقائه فقبل بكل ارتياح . فذهب مع عمه بحلته العربية فاتجهت إليه الأنظار ولكن لم يعرفه أحد . ولما سئل رئيس الكنيسة من هذا ؟ قال : سفير صلاح الدين لدى ملك فرنسا ، ثم أجلسوه أمام زوجه بالمصادفة فتفرس فيها فوجدها عابسة مهمومة ، وكانت تطيل فيه النظر دون أن تهتدي إلى شيء بسبب حلته العربية وذيوع وفاته التي كان لا يشك فيها أحد

ثم فكر توريل أنه قد حان الوقت لاختبار زوجه إن كانت محافظة على ذكراه ، فوضع في أصبعه الخاتم الذي قدمته له عند سفره كتذكار منها ، ثم دعا الخادم الذي خدمه وقال له : « إذهب وقل للعروس عن لساني بأنه قد جرت العادة في بلادنا أن الأجنبي إن حضر عرساً فإن العروس لتبرهن له على إكرام وفادته وحسن رعايته تقدم إليه كأساً مترعة من النبيذ فيشرب منه ما يشتهي ثم يغطيه ويرده إلى العروس فتشرب السؤر . ولتبرهن له على عطفها عليه أمرت أن تقدم إليه كأس كبيرة من النبيذ وكان توريل قد وضع الخاتم في فمه ثم شرب الكأس كلها وألقى من فمه الخاتم في الكأس دون أن يشعر به أحد وغطاها وردها إليها ، فكشفت الكأس ولمحت فيه الخاتم فعرفته ثم حدقت النظر في هذا الغريب وصرخت صرخة دوى لها المكان وقلبت المائدة التي كانت أمامها وانطلقت كالسهم وارتمت في أحضان النبيل قائلة : « هذا هو في الحقيقة سيدي وزوجي وعزيزي توريل » ثم عانقته عناقاً عنيفاً ولم تحسب حساباً للحاضرين . ثم قص كل منهما حديثه وأخباره من يوم سفره للآن وذهب الزوجان إلى منزلهما وتركا العروس وشواره وهو يقلب كفيه من الحسرة ، وهرع جميع من في العرس إلى بيت توريل بمظاهر الفرح والبشر ، وأقبل الأصدقاء والخلان يهنئونه بالعودة وسط احتفال عظيم وموائد نصبت عليها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ العيون ؛ ثم أعطى توريل جانباً من التحف لمزاحمه عوضاً عن نفقات العرس وجانباً آخر لعمه رئيس الكنيسة وعاش مع زوجه في هناءة وسعادة أعواماً طوالا

محمد كامل حجاج